موريس رافيل

تمثيل الزمن في موسيقى موريس رافيل، أو تأمله ميتافيزيقياً من خلال أشكال إيقاعية وعناوين ومضامين أدبية، يكاد أن يُسمع في كل أعماله، على عكس المقولة الفلسفية التي تشير إلى استحالة الإمساك بلحظة من الزمن، كونها تنقضي فوراً

سبق له أن وصف الفن بأنه «خداع» (بوريس روجر فيوليت/Getty)

موسيقى نجسّ بها الزمن

علي موره لي

أشهر المقطوعات، أبسطها وأشدها تعبيراً عن شخصية مؤلفها موريس رافيل Maurice Ravel (1875 - 1937)، الذي يصادف اليوم ذكرى ميلاده، هي «بافان» (رقصة بطيئة لأميرة فقيدة Pavane Pour Une Infante Defunte) كتبها في البدء لآلة بيانو وحيدة، ثُم أعاد إصدارها بنسخة موزّعة لفرقة أوركسترالية.

تبدأ القطعة بسطوع لحنٍ لبوق هورن منفرد، يرافقه آخر، يمتد على أفُق هارموني رحب، تشارك برسمه آلتي باصون (من أسرة النفخيات الخشبية). ما يلبث اللحن إثر انزياح شعوري يُحدثه مرور الأصابع على أوتار الهارْبْ، أن يعبر على عتبة خماسية نحو فضاء مقامي آخر، من مادة أثيرية يُحدثها انسجام الكلارينيت والأوبوا، مع لحن الكمان الواطئ، المخملي والدافئ.

في بُعدٍ خفي خلف المشهد السرمدي، تدقّ الوتريات بأسلوب النقر على الأصابع، دقّات خافتة، صارمة منتظمة، وكأن وجهتها اللانهاية؛ إنه الزمن. هنا، تحضر في ذهن السامع المصغي نظرية «المُدة» La Durée (في الزمن والوعي) لمعاصر رافيل، الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون Henri Bergson، والتي تتحدث عن حركيّة الزمن؛ ما أن يهم المرء بقياس لحظة، أو الإمساك بها فيزيائياً، حتى تنقضي، وعليه، فالزمن لا يمكن إدراكه إلا بالخيال، أو الحدس.

تمثيل الزمن في موسيقى رافيل، أو تأمله ميتافيزيقياً من خلال أشكال إيقاعية وعناوين ومضامين أدبية، يكاد أن يُسمع في كل عملٍ من أعماله، كأوبرا «الساعة الإسبانية L'heure Espagnole التي تتناول، بشكل فكاهي، حبكة غرامية تلعب الساعة الميكانيكية فيها دوراً رمزياً، باعثاً للقلق المُسخّن للحدث الدرامي، ومن خامس لوحة من متتالية «حارس الظلام» Gaspard De La Nuit بوحي قصيدةٍ للشاعر الفرنسي برتراند، عنوانها «المشنقة» Le Gibet حيث الضرب الإيقاعي المؤذن بحلول لحظة تنفيذ الحكم على الجاني بالموت.

> شكّل نوتاته لتبدو أشبه بنماذج زخرفية من الهندسة الفراغية

لم يكن الزمن شاغل بال رافيل وحده، وإنما شاغل كل مبدعي ومثقفي عصره. وما أشبه زمانه بالزمن الراهن، فالقنطرة التي وصلت بين القرنين، التاسع عشر والعشرين، قد شهدت تسارعاً تكنولوجياً وخصوبة إبداعية وارتدادات اجتماعية وسياسية، تكاد أن تكون مرآةً للقنطرة الواصلة بين القرن العشرين والحالي. ثورة اتصالات فجرها الهاتف والمذياع.. ثورة إبداعية أحدثتها الكاميرا الضوئية والسينمائية وبوق الحاكي، وأخرى اجتماعية تمثّلت ببروز قطبين طبقيّين للثورة الصناعية برجوازية وعماليّة، وسياسية تمثّلت باحتدام النزاع بين القوى الرجعية، الإمبراطورية والملكية، والتقدمية الشيوعية والديمقراطية الاشتراكية، ومن ثم صعود الهويّاتية الفاشية اقتراباً من فناء محتمل للجنس البشري، إثر تعاقب الحربين العالميتين الأولى والثانية. تسارع في الأحداث والمنجزات، نجم عنه قلقٌ وجودي عميق إزاء مفهوم الوقت. العدسة الفوتوغرافية تحاول تجميد اللحظة في الصورة بُغية إدراكها. في الشعر، يعنون الشاعر الفرنسي السوريالي آندريه بريتون André Breton قصيدته سنة 1924 «وقت أقل» Moins De Temps. في الفنون التشكيلية في سعي إلى إبطاء الزمن، أذاب سيلفادور دالي الساعات في لوحته الشهيرة «مثابرة الذاكرة» The Persistence Of Memory سنة 1931. أما اللوحة الانطباعية بعيون كل من الرسامين الفرنسيين سيزان ومونيه، فكانت ترصد العالم صورةً مطموسةً مضطربة، محجوباً عنها اليقين.

ثنائيات «بافان»

بافان، اللوحة الشعرية والمرثية التي تجمع بين الموت بمُضيّ الزمن، وبين الحياة برمز الطفولة، بين عذوبة ألحانها وانسيابيتها، وبين دقّات مُسنّنات ساعتها الآلية، جميعها ثنائياتٌ جسّدها رافيل بوجوده كما جسدها بموسيقاه، إذ هو كان ذاته الشخص النحيل والوديع الأنثويّ السمات، والهامد البارد، قاسي الملامح وحاد القسمات، كان القريب المُنفتح، وكان البعيد المنعزل والمُنغلق.

بافان، أو مرثية رافيل باللحن والعنوان، انعكاسٌ آخر لروح العصر في روح المعاصِر، يتمثّل في قراءة الوجود البشري من منظور التحليل النفسي. فالمقطوعة لا تسعى فقط إلى إحياء صورة طفلة صغيرة، أميرة إسبانية شابة ترقص في أرجاء بلاط قروسطي، وإنما من خلال طبيعة ألحانها وانتقالاتها الهارمونية ومعالجاتها التوزيعية، (أيّة آلة تعزف أيّ صوت)، تبدو كأنها تقترب من الطفل الذي ما زال يسكن لاوعي المؤلف، ولعله لاوعي المستمع أيضاً. فكرة العودة للطفولة، أو الطفلية Infantilism كمسبار سيكولوجي، كانت قد شكلت المحور الذي يدور حوله مذهب سيغموند فرويد بقصد تتبع الدافع الجنسي في بواطن اللاشعور.

تلك المظاهر الطفلية، لم تميّز لغة رافيل الميلودية ونُسجه الهارمونية فحسب، وإنما أيضاً جوانب من شخصيته، إذ هو لم يتزوّج قط، ولا أخبار تذكر عن خوضه أيّ علاقات عاطفية، كانت تربطه بوالدته إسبانية الأصل من إقليم الباسك، مشاعر حب ذات طبيعة أوديبية، حتى أن بعض الدراسات البيوغرافية (تأريخ السير الذاتية) ترجح ميوله المثلية. ففي قراءة لواحدة من مقطوعاته، وهي «مينويت عتيقة» Minuet Antique يرى المؤرخ الفرنسي بينجامين إيفري Benjamin Ivry في كتابه عن رافيل بعنوان «حياة» A Life إن بها «نفحات عشق من تراث شعر الغلمان العربي».

مظهر آخر لعصره احتضنه رافيل أسلوبياً وجمالياً هو التكنولوجيا. هو واحدٌ من روّاد الأسلوب المينيمالي، التصغيري أو التقليلي، الذي يبدو رائجاً منذ تسعينيات القرن الماضي وحتى اليوم. عبّر عن افتتانه بالصنعة التشكيلية في الكتابة الموسيقية أو ما كان يُطلق عليه الحيل Artifice. قد سبق له أن وصف الفن بأنه «خداع» Imposture، إلا أن فنه، بخداعه، أشبه بالقناع الذي إن أحسن المؤدي أو المصغي ارتداءه، ثم خلعه، كشف ما خلفه، لينجلي سحرٌ دفين، مشحون بالعواطف، محمّل بالفكر، آسرٌ للجمال.

إن نظر المرء إلى واحدة من مدونات أعماله، فسيرى النوتات وقد شُكّلت أشبه بنماذج زخرفية من الهندسة الفراغية. حين تُعزف، بمهارة وحساسية، ستتناهى كما لو كانت ألعاباً ميكانيكية، كالتي كان رافيل يهوى جمعها في منزله كالطفل، إلا أن لتلك الألعاب أرواحاً تسكنها، أو روحاً تُسيّرها من خلف البنيان، روح الفنان، تسعى إلى جسر الهوة ما بين الروح وبين المادة، بأسلوبٍ تُمكن تسميته بالشعرية الآلية.

خاصية أخرى ميّزت رافيل مسلكاً حياتياً ومنهجاً فنياً، وهي تجسيده لشخصية مثقف الحاضرة الكوزموبوليتي، أحسّ بأوروبا الكولونيالية بوتقة صهر للقاصي والداني من الثقافات. ففي نهاية القرن التاسع عشر، حوّلت العواصم الأوروبية، كباريس ولندن وبرلين، إلى موانئ للثقافة كالتي كانت عليها روما، وبغداد والقسطنطينية.

أخبار

تتيح أوركسترا **منطقة روماندي** السويسرية الناطقة بالفرنسية لمحبيها التمتع بتجربة فنية رائعة، إذ يحيي موسيقيوها في مواقع شتى من جنيف حفلات يحضرها شخص واحد، تماشياً مع القيود المفروضة لمكافحة الجائحة الحالية.

أصدرت فرقة **البوست روك** الاسكتلندية، Mogwai، ألبوماً جديداً، يحمل عنوان As The Love Continues، وهو ألبوم الاستوديو العاشر في مسيرة الفرقة، التي مضى على تأسيسها خمسة وعشرون عاماً.

تكيّفت **أوبرا صوفيا** مع جائحة كورونا، وباتت من المؤسسات النادرة في أوروبا التي أبقت أنشطتها قائمة. توفر دار الأوبرا لسكان العاصمة البلغارية برنامج عروض حية غنياً، خلافاً لمدن أوروبية أخرى توقفت فيها العروض الموسيقية.

عند الثامنة من مساء غد، تنظم «دار الأوبرا المصرية»، عرضاً على خشبة «المسرح الكبير»، يقدّم فيه الموسيقي وعازف البيانو، **عمر خيرت**، مجموعة من أعماله الشهيرة، مثل «ضمير أبلة حكمت»، و«قضية العم أحمد»، وغيرها.

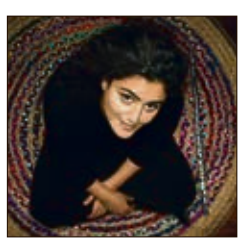

أصدرت عازفة الفلوت والناي السورية الفرنسية، **نسيم جلال**، ألبوماً جديداً برفقة فرقتها الموسيقية متعددة الجنسيات، «إيقاعات المقاومة». حمل العمل الجديد عنوان UN AUTRE MONDE (عالم آخر). وهو ثالث ألبوم تصدره الفرقة.

انفصال «دافت بانك» رقصة استمرّت لثلاثين عاماً

عمّار فراس

تعتري الواحد منا، محبي الموسيقى الإلكترونية، مشاعر مختلطة حين يكتب على غوغل Daft punk.. السبب أن النتيجة الأولى هي صفحة ويكيبيديا، وقبل أن نضغط على الرابط، نقرأ: «ديف بانك كانا ثنائياً موسيقياً فرنسياً...». الفعل الماضي الناقص هنا هو ما يثير الحزن؛ فالثنائي ذو الخوذ المميزة التي تخفي أوجههما والأزياء البراقة، أعلنا انفصالهما عبر فيديو لهما نشر على يوتيوب بعنوان «النهاية». الفيديو مقتبس من فيلم سبق لهما أن أنتجاه عام 2006، وفيه نراهما فيه يمشيان باتجاهين مختلفين، ثم يتقابلان لينفجر أحدهما. هذ الوداع الساخر والمؤثر، يحتفي بتاريخ هذا الثنائي العالمي الذي بدأ عام 1993، وينتهي هذا العام. ثلاثون عاماً من الموسيقى والرقص، بدأت بأغنية «الموجة الجديدة»، لتنطلق بعدها شهرة الثنائي العالميّة، ويتحركان بين الأنواع الموسيقية المختلفة، إلى جانب العمل مع أشهر الموسيقيين في العالم. كل ذلك دون أن نعرف وجهيهما، وكأنهما كائنان موسيقيان فقط. أفردت صحيفة ليبيراسيون الفرنسيّة صفحتها الأولى لخبر افتراق الثنائي. ولاحقاً، نُشر مقال بعنوان «دافت بانك: البحث عن الإيقاع المفقود»، في محاكاة لعنوان سباعية مارسيل بروست الشهيرة «البحث عن الزمن المفقود». وفيه، يكتب ثمانية موسيقيين وفنانين انطباعاتهم وذكرياتهم عن الثنائي الشهير، وكأننا حسب عنوان مقال آخر نشهد «نهاية اللمسة الفرنسيّة» تلك التي تركها الثنائي في تاريخ الموسيقى. ما التزم به الثنائي طوال مسيرتهما هو الرقص. لا بد لكل أغنية أن تحمل إيقاعاً ما، قادراً على تحريكنا، ما جعلهما من أشهر منسقي الأغاني في حفلات باريس وفرنسا. موسيقى الهاوس والإليكترو التي أنتجاها ما زالت إلى الآن تحافظ على حيويتها. وبالرغم من تعاونهما مع الكثير من الفنانين، ما زالت موسيقاهما تحوي سحراً ما.. دعوة إلى الرقص التي لا يمكن ردها أو تجاهلها.

> ما التزم به ثنائي Daft Punk طوال مسيرتهما هو الرقص

أسلوب الثنائي الحيوي وحسهما بالأزياء والجماليات التي يوظفانها، جعلتهما قادرين على مخاطبة طيف واسع من الأذواق، فأغنية One more time التي نالت نجاحاً عالمياً حين صدرت بداية الألفية الثانيّة، تحتفي بالموسيقى نفسها، في ذات الوقت شريطها المسجل هو مقتطفات من فيلم الأنيمي Interstella 5555.. وكأن الثنائي يريد القول إن الموسيقى والاحتفال قادران ليس على تجاوز الأنواع الفنيّة فحسب، بل أيضاً المجرات بأكملها.

يقول هوا هيسو، في مقال له في «ذا نيويوركر»، عن انفصال الثنائي، إنهما لم يكونا مستقبليين، بل نوستالجيون، يشعران بالحنين إلى حقبة ما قبل الألفية الثانيّة، كما في ألبومهما الصادر عام 2013 باسم Ram. ويشير لاحقاً إلى أنهما أشبه بمن يقوم في بحث في الطفولة والحنين، في محاولة لالتقاط بداية المؤثرات الصوتية والبصرية التي نراها في نتاجهما، ويستطرد قائلاً إنهما ما زالا يستخدمان صيغة «الألبوم» في إنتاج موسيقاهما، فلا تسجيلات طويلة لهما، كما يفعل عادة منسقو الموسيقى.

تعاون الثنائي مع العديد من نجوم البوب والمنتجين المشاهير، كما في أغنية «محظوظ» التي يشارك فيها فاريل ويليمز ونيل رودريغيز، وتجاوز عدد مشاهدتها النصف مليار. لا بد أن نشير طبعاً إلى أزياء دافت بانك، التي أصبحت علامة تجارية، بل ويمكن شراؤها بعد أن افتتح الثنائي متجراً لهما في هوليوود.

اشتُهرا بأزيائهما الغريبة التي اصبحت علامة تجارية (فرانشيسكو غيلوت/فرانس برس)